تفعيل الإيمان... حلاً لأزمة الإنسان

الملخص

أ.د. محمد عبدالله الشرقاوي[1]

عرض تفعيل الإيمان كما عبّرت عنه رسائل النور، موافق لما وردت به الأصول الإسلامية، وهو مسلك يجعل الإيمان مصدرا رئيسا لتخليص إنسان العصر من أزماته المستحكمة، وإسعافه للخروج من معيشته الضنك، وأساس ذلك إيمان قابل للتفعيل إيمان تحقيقي المتجاوز الإيمان الوراثي، إيمان يجمع العلم إلى العمل، ويمزج بينهما مزجا كليا، يستوعب كلّ ملكات الإنسان وجميع أوضاعه.

البحث:

نحاول في هذا البحث الإجابة عن السؤال الآتي:

هل يمكن للإيمان أن يقود إنسان هذا العصر إلى التخلص من أزمته وضنك معيشته؟... وكيف ومتى يتحقق ذلك؟

ويتمحور البحث على مبحثين اثنين؛ هما:

المبحث الأول: تفعيل الإيمان.

المبحث الثاني: جدوى الإيمان الحي وآثاره الفاعلة للفرد والمجتمع.

* * *

Putting Belief into Action: A Solution to the Human Crisis

ABSTRACT

Prof. Dr. Mohammed Abdullah al-Sharqawi

This research focuses on the importance of activation of faith as expressed by Risale-i Nur, in accordance with Islamic principles. It shows how to make faith a major tool in the hands of the modern man to resist dire calamities of this era. Real and activated faith, not the inherited one, is also a mean to rescue man from harsh psychological troubles. This research study is an attempt to

answer the following question: Can faith lead man of this age to get rid of his crisis and his rough livelihood? How and when will this goal be achieved? The research is based on two topics; the first topic is activating faith and the second topic is the benefits of living faith and its real effects on individual and society.

* * *

المبحث الأول: تفعيل الإيمان

إذا كانت بنية الدين الكلية تتشكل من: الإيمان والعمل الصالح معاً، وإذا كان الإيمانُ روحَ الدين المسئول عن بقائه حياً نابضا، بمعنى أن يكون الإيمان هو الحافز والمنطلق إلى الأعمال الصالحة؛ فإن هذا الإيمان إذا ما فُعِّل تفعيلاً صحيحاً، (أو، شُغِّل تشغيلاً حقيقياً حسب تعبير الأستاذ سعيد النورسي) يُزهر، ومن ثم يعطي ثمرته التي تنفع صاحبها وتنفع الإنسانية كلها دون تمييز.

لقد ربط ''الذكر الحكيم'' الإيمان بالأعمال الصالحة النافعة برباط وثيق محكم في عشرات من الآيات الكريمة. فلا يذكر الإيمان إلا مرتبطا بالعمل الصالح، فتفعيل الإيمان أو تشغيله إذاً، هو الطريق إلى العمل الصالح، وهو الصراط الوحيد إلى تحقيق الحياة الطيبة السعيدة في هذه الحياة الدنيا (هنا والآن) والفوز بالنجاة والخلود في الحياة الآخرة (هناك فيما بعد).

ولكن كيف ومتى يكون الإيمان فاعلا مثمراً؟

إيماننا -في الأغلب الأعم- إيمان وراثي تقليدي، ومن ثمّ فهو إيمان شكلي، ومن هنا فإنه لا يتسم باليقينية والرسوخ التام، لأنه لم يكن نيله نتيجة النظر والتفكر والتدبر والاعتبار، ولأنه لم يتغذ بذكر الله الموصول بآياته المسطورة (القرآن) وآياته المنثورة (الكون)، فهو لا يتحقق باليقينية القاطعة. ولتفعيل إيماننا لابد أن يتآلف العقل والقلب والروح معاً في تلقي آيات الوحي في القرآن والكون معاً.

ورسائل النور مصممة -كما اكتشف الدكتور كولن تيرنر- لكي تقود المسلمين من إيمان تقليدي إلى إيمان تحقيقي (قائم على التفكير والتأمل) ولكي تُغير المؤمنين من عبادة أنفسهم إلى عبادة الله تعالى.

ويمكننا أن نذكر بعض المسائل التي تعمل كآليات لتشغيل الإيمان مثل: ''تجديد الإيمان''[2]: شرح الأستاذ سعيد النورسي ذلك شرحاً بديعاً فقال: ''إن الإنسان لكونه يتجدد يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائماً، لأن الإنسان الفرد ما هو إلا أفراد عديدة، فهو فرد بعدد سنين عمره، بل بعدد أيامه، بل

بعدد ساعاته حيث أن كل فرد يعد شخصاً آخر، ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد جديد آخر...'' ثم يزيد المسألة وضوحا بقوله: ''ثمّ إن الإنسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا، فإن العالم الذي يسكنه سيار أيضا لا يبقى على حال. فهو يمضي ويأتي غيره مكانه، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد.'' ذلك أنّ ''الإيمان نور لحياة كل فرد من أفراد ذلك الشخص من جهة كما أنه ضياء للعوالم التي يدخلها، وما ''لا إله إلا الله'' إلا مفتاح يفتح ذلك النور. ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضيق الخناق على إيمانه، حتى تسد عليه منافذ النور الإيماني بنثر الشبهات والأوهام. فضلاً عن أنه لا يخلو عالم الإنسان من كلمات وأعمال منافية لظاهر الشريعة، بل تعد لدى قسم من الأئمة في درجة الكفر. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان في كل وقت، بل في كل ساعة في كل يوم.''[3]

ومما ركزت عليه رسائل النور -تفعيلاً للإيمان- النظر إلى الإنسان باعتباره كينونة متكاملة، ومن ثمّ لم تعزل وتفصل الرسائل في خطابها إلى الإنسان بين عقله وقلبه وروحه، بل مزجت بين كل ذلك مزجاً يفعّل كل هذه اللطائف ويجعلها متعاونة متساندة في أداء مهامها الجليلة، وليست متعاندة أو متدابرة أو حتى متنافسة في ذلك. وأنت حين تنظر إلى الرسائل تجدها تمزج بين العقل الخالص (الفلسفة) و (علم الكلام) وبين الروح (التصوف) وبين القلب الوجداني في آن واحد، لأن عقل الإنسان واقعاً ليس معزولاً عن قلبه وروحه، وبهذه المنهجية قد أفادت الرسائل من علم الكلام والفلسفة والتصوف حين جمعت بينها ومزجت ولم تفصل الفصل الذي جعل من الإنسان (إما أو) أعني: إما متكلماً متفلسفاً أو متصوفاً. والحق أنه ينبغي أن يكون متكلماً متفلسفاً متصوفاً معاً حتى يستوعب حقائق الإيمان ويتذوقها ويتأثر وينفعل ويتحرك بها.

وما يفعّل الإيمان كذلك النظر إلى الأسماء الإلهية وتدبر تجلياتها في الوجود (في الآفاق وفي الأنفس) وهنا نجد صاحب الرسائل قد ابتعد عن الصراع حول الصفات الإلهية بين علماء السلف والخلف،[4] ونراه الشيخ قد نحا نحواً إيجابياً مثمراً تمثل في النظر إلى تجليات الأسماء الإلهية في الوجود كله من ذراته إلى مجراته وإرشاد الناس إلى ذلك.

ويمكننا القول بأن الرسائل قد نهجت ذلك النهج القرآني القويم في التدبر في الكون وتجليات أسماء الله الحسنى فيه، وهذه هي الصبغة الغالبة عليها بحيث يصعب

تقديم نماذج لأنها جميعها من أولها إلى آخرها تسير على هذا الصراط السوي، وهو الجمع بين تدبر الوحي المسطور (آياتالقرآن) والوحي المنظور (آيات الكون) معاً، وهو من أعظم ما يشعل جذوة الإيمان في القلوب والأرواح ولنقدم على ذلك نماذج من حديث الأستاذ عن ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وما التمع في قلبه من إشارات وما ورد على قلبه من أنوار، وقد تصور الأستاذ تجليات اسم الله (الفرد) في صورة أختام وبصمات دالة على التوحيد في الكون كله وأنواعه وأفراده.

قال الأستاذ: الختم الأول: إن التجلي الأعظم للفردية قد طبع على وجه ''الكون'' كله طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلَّه بحكم ''الكل'' الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً بحيث: إن مَن لا يقْدِر على أن يتصرف في الكون كلِّه لا يمكن أن يكون مالكاً مُلكاً حقيقياً لأي جزء منه.

نفهم من هذا أن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إن لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً.

اذاً؛ ''التعاون'' و ''التساند'' و ''التجاوب'' و ''التعانق'' الواضح على وجه الكون، إنما هي أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

الختم الثاني: إن التجلي الباهر لاسم الله ''الفرد'' يجعلنا نُشاهد -على وجه الأرض ولا سيما في الربيع- ختماً لامعاً للأحدية، وآية جلية للوحدانية بحيث: إن من لايدير جميع الأحياء على وجه الارض كلها بأفرادها وأحوالها وشؤونها كافة، والذي لايرى ولايخلق ولايعلم جميعها معاً، لا يمكن أن يكون له تدخل في أيشئ من حيث الإيجاد.

لذا فإن هذا ''التدبير والإدارة'' المشاهَد في هذا الأمر الدائب على وجه الارض وباطنها إنما هو آيةٌ ساطعة للأحدية، وختمٌ واضح للوحدانية، بحيث: إن مَن لم يكن خالقاً لجميع تلك الموجودات من العدم، ومدبّراً لجميع شؤونها في آن واحد، لا يقدر على التدخل -من حيث الربوبية والإيجاد- في شئ منها، لأنه لو تدخل لأفسد تلك الإدارة المتوازنة الواسعة. إلاّ ما يؤديه الإنسان من وظيفة ظاهرية -بإذن إلهي ايضاً- لكشف تلك القوانين الربانية وحُسن سيرها.

الختم الثالث: في وجه الإنسان: إن شعار التوحيد وختمه واضح وضوحاً بيناً لكل مَن يتأمل وجه أي أنسان كان، وذلك: إن لكل انسان علامة فارقة في وجهه تُميّزه عن غيره. فالذي لايستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطّلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمد يده من

حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد.

نعم، إنّ الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لابد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس -كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء- لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كلٍ منها.

وكما أن تشابه الأعضاء -من عيون وأنوف- في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجه - لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز، ولِحِكَم أخرى كثيرة - هي الأخرى دليل واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآية بديعة جلية ايضاً للأحدية، بحيث: إن الذي لا يَقدر على خلق جميع البشروالحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد.

ومن ''الإشارات'' التي فاضت على قلب الأستاذ حين تدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ونظر في كون الله تعالى:

١- إن عوالم الكائنات المختلفة وأنواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد اندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضُها مع البعض الآخر، بحيث: إن مَن لم يكن مالكاً لجميع الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيد لاسم الله ''الفرد'' قد أضاء ارجاء الكون كله، فضمّ أجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة ''كلٍ'' واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد. فالذي لا يستطيع أن يُنفِّذ حكمَه على جميع الكون لا يمكنه -من حيث الخلق والربوبية- أن يُخضِع لربوبيته أي شئ فيه، حتى لو كان ذلك الشئ ذرة أو أصغر منها.

٢- لقد تحول الكون كله -بالتجلي الأعظم لاسم الله ''الفرد''- إلى ما يشبه رسائل صمدانية ومكاتيب ربانية متداخلة بعضها في البعض الآخر، تزخر كلُ رسالة منها بآيات الوحدانية وأختام التوحيد، وتحمل كل رسالة بصمات الأحدية بعدد كلماتها، بل

إن كل كلمة فيها تُفصح عن وحدانية كاتبها؛ إذ كما يدل الختمُ أو التوقيع في الرسالة على كاتبها، فإن كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، إنما يمثل ختم الأحدية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبها. أي أن كل شئ يُسند جميع الاشياء إلى خالقها ويشير إلى تجلٍ باهر عظيم لوحدانيته سبحانه.

٣- إن الأمر يسهل بالوحدة ويصعب بالكثرة هكذا، كذلك إذا أسنِد الخلقُ والايجادُ إلى ''الفرد الأحد'' جل وعلا، فإن خلقَ افرادٍ غير محدودة لنوعٍ واحد يكون سهلاً كخلق فرد واحد، بينما لو أُسنِد إلى الأسباب، فإن خلقَ كلِّ فردٍ يكون مُعضلاً وصعباً كخلق النوع الواسع الكثير.

أجل! إن الوحدانية والتفرد تجعل كل شئ منتسباً ومستنداً إلى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوة لاحدّ لها لذلك الشئ، حتى يمكنه أن يُنجز من الأعمال الجسيمة، ويولّد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية الوفَ المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب.

أما الذي لا يستند ولا ينتسب إلى صاحب تلك القوة العظمى ومالكها ''الفرد الأحد'' فسينجز من الأعمال ما تتحملهقوتُه الذاتية المحدودة جداً، وتنحسر نتائجُها تبعاً لذلك.

٤- وهكذا يستند كلُّ شئ إلى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره.. وهكذا يستمد كل شئ في الوجود قوته من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة... من ذلك ''الفرد الأحد'' جلّ وعلا.

فلولا الفردية.. لفقَد كل شئ هذه القوة الجبارة، ولسقط إلى العدم وتلاشت نتائجه.

فما تراه من ظهور نتائج عظيمة هائلة من أشياء بسيطة تافهة، ترشدنا بالبداهة إلى ''الفردية'' و ''الأحدية''. ولولاها لبقيت نتائج كل شئ وثماره منحصرة في قوته ومادته الضئيلة، وتصغر عندئذٍ النتائج بل تزول.[5]

ومما يجعل الإيمان حياً فاعلاً، المداومة على ذكر الله تعالى ورسائل النور تركز على هذه الآلية لما لها من نجاعة لتحقيق ذلك، ويمكن مراجعة كتابات الشيخ سعيد للتعرف على كيفية الذكر والتدبر في ألفاظه وما تحمل من ظلال وأنوار، ولنأخذ على سبيل المثال تدبره في (يا باقي أنت الباقي)[6] لنتعرف على حقيقة أمر الذكر ودوره في إيقاظ القلب وتشغيل الإيمان.

المبحث الثاني: جدوى الإيمان الحي وآثاره الفاعلة للفرد والمجتمع

يكتسب الإنسان -حين يُفعل إيمانه- إيجابية عظيمة واهتماما كبيرا بالمشاركة الفاعلة في الشأن العام. كما يصحو ضميره أو نفسه اللوامة وإدارة المحاسبة الذاتية فيه. وتزدهر أخلاقه الحميدة، ويمتلئ بكل معاني السكينة والاستبشار والتفاؤل والطمأنينة القلبية، ويتحقق له التوازن النفسي والعقلي، كما يشرق عقله ويَصِح فكره، وتنشط همته وعزيمته للإحسان والرحمة والخير والصلاح والإصلاح.

ويدرك أن حقائق إيمانه تفرض عليه التضلع من العلم والبحث، والانهماك في العمل النافع المنتج، وبهذا يتخلص الإنسان من الفقر والعوز والتخلف والانحطاط. كما يدرك أن من قيم الإيمان أن يعزز مُثل الحرية والشورى والديموقراطية والعدالة والمساواة والتسامح، وكل ذلك يعالج ضنك الاستبداد والإرهاب والشقاق، وبذلك يحيا الإنسان إنساناً، ويستمتع بحياة طيبة هانئة، تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾،[النحل:٩٧] وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[يونس:٩]

وهذه سنة إلهية ماضية، وإن رسائل النور درس عبقري في تفعيل الإيمان وتحقيقه لكي يَمنح إنسان العصر ثماره وأزهاره وبهذا يحقق الإيمان للإنسانية مستقبلاً أفضل.

ويمكننا تصنيف ما يجنيه المؤمن من ثمرات وآثار إيجابية إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: ثمرة علمية معرفية

إذا كان الإنسان يحتاج إلى العقيدة الدينية لإشباع حاجته إلى التدين وتلبية نداء الفطرة في داخله، فإنه يشعر بالرغبة الملحة في التحصيل العلمي والإدراك المعرفي، والبحث عن إجابات شافية لكثير من الأسئلة المطروحة على عقله، حول الوجود والحياة والمبدأ والمصير والحكمة والغاية من الخلق، وانطلاقاً من شعور الإنسان بالعجز عن الوصول لتلك الإجابات وإدراكه أن خالق هذا الوجود ومدبره هو العالم به، والمحيط بتفاصيله ودقائقه ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾،[الأنعام:٥٩] ومن ثم لا يجد الإنسان وسيلة للتعرف على رب هذا الوجود، سوى أن يتوجه إليه طالباً العلم، باحثاً عن إدراك المعرفة، لأنه عز وجل وسع كل شيء علماً، وما علم الناس جميعاً إلا فيض علمه ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيم﴾،[يوسف:٧٦] ومن ثم استقر في نفوس المؤمنين أن أصول علومهم ترجع إلى مصدر

الإلهام والتعليم وهو الله تبارك وتعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها﴾.[البقرة:٣١] ومن أهم المجالات التي يشعر الإنسان بالحاجة إلى ارتيادها والوقوف على حقيقتها في باب العلم والمعرفة، الوصول إلى ردود واضحة حول التساؤلات الكبرى التي يطرحها الإنسان قديماً وحديثاً وهي: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وإلى أين المصير؟ ومن ثم تقوم العقيدة الدينية بدور كبير في تحقيق اليقين عندما تجيب عن تلك الأسئلة التي ظلت الإجابة عنها حائرة تتخبط، حينما تنكبت طريق الدين وذهبت تبحث عن تفسير في الفلسفة أو العلم التجريبي أو المذاهب الأرضية، وبهذا تقدم العقيدة للمؤمن تصوراً متوازناً منضبطاً ينجي المؤمن من عذاب الحيرة والشك، بينما يظل الجاحدون بالله الشاكون في لقائه يوم الحساب يحيون حياة لا معنى لها، ولا هدف من ورائها، لا يدرون لماذا هم في هذا الوجود! إن المؤمن من خلال إيمانه العميق الذي جاء به الوحي، وأيده العقل، ينجو من مهاوي الشك والاضطراب، ويستريح من أزمات البلبلة والحيرة الذهنية والنفسية التي يتجرع غصصها الجاحدون والمرتابون. من خلال هذا الإيمان الواضح القريب من العقل والوجدان والفطرة، يحل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى حين يعرف عن طريقه مبدأه ومصيره وغايته وهدفه، بل ويعرف مبدأ الكون كله ومنتهاه، فتنحل عقد الشك من نفسه، وتزول علامات الاستفهام الكبرى من حياته.

إن الإجابات الفلسفية والعلمية التي يصل إليها الإنسان بعد عناء وجهد كبيرين، تظل -وإن صحت أحياناً- تفتقر إلى برد اليقين، وتبقى حبيسة النظر العقلي المجرد أو الاحتمال العلمي غير المؤكد، وشتان بين علم يقيني جاء به الوحي ووافقه عليه العقل،وشهدت له الفطرة، وعلم هو محل الظن أو الفرض العلمي.

الصنف الثاني: ثمرة نفسية وجدانية

إن السعادة إحساس داخلي وشيء معنوي لا يرى بالعين،ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه خزائن، ولا يشترى بالمال، لا وجود للسعادة إلا بين جوانح الإنسان فهي صفاء النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وراحة الضمير، وبرد اليقين، وهذه المعاني لا يملكها بشر فيعطيها ولا سلطة فتمنعها. يقول أحد المؤمنين السعداء بإيمانهم: ''إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف''، ويقول آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التي تغمره: ''إنه لتمر علي ساعات أقول فيها لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذن في عيش طيب''. إن الذين رزقزا هذه النعمة ليرون حوادث الدهر وتقلبات الزمان بعين أخرى، فيسخرون منها وإن أبرقت وأرعدت ويبتسمون لها وإن كشرت عن نابها، يفلسفون المحن فتستحيل عندهم إلى

منح تستوجب شكر الله على حين هي عند غيرهم مصائب تستوجب الصراخ والشكوى والحزن.

إن حاجة الإنسان إلى سكينة النفس وطمأنينة الفلب وراحة الضمير، من ألزم الحاجات النفسية والروحية التي نبحث عنها جميعاً ونسعى إلى تحقيقها في حاضرنا ومستقبلنا.

وما سكينة النفس وطمأنينة القلب إلا ثمرة من ثمرات الإيمان العميق الذي لا يكدره شك ولا يفسده ريب ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾الفتح:٤ وسكينة الإيمان هي ألزم ما يحتاج إليه المؤمن في وقت الشدة.

ثم إن العقيدة الدينية الحقة تمنح صاحبها من المعاني النفسية والقوى الروحية، ما يقوى به في مجالدة الصعاب ومواجهة الشدائد والمحن، فهي تعطيه العزة والكرامة والحرية والسيادة، يقول عمر الفاروق ﷺ: ''لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام''.

والعقيدة فضلا عن ذلك كله تحقق للمؤمن لوناً من ألوان التوازن النفسي في مواجهة تقلبات الحياة وصروف الدهر، فهو بين الخوف والرجاء راغباً راهباً، وهو بين الصبر والشكر راضياً حامداً، كما هو بين الاستغناء عن الناس والافتقار إلى الله قانعاً مطمئناً: ''عجبنا لحال المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن''.[7]

وعلى الجهة الأخرى من أهل الإيمان، نجد أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً وشعوراً بالتفاهة والضياع هم أولئك المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين، فحياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات، وذلك لأنهم لا يدركون لها معنى ولا يعرفون لها هدفاً ولا يفهمون لها سراً، فكيف يظفرون مع ذلك بالراحة والسكينة واليقين.

إن غير المؤمن بائس محروم حقاً. يقال دائما عمن فاته شيء منهم من مسرات الحياة الدنيا: لقد فاته نصف عمره، فكيف بمن فاته روح الحياة وحياة الروح!؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان ونور اليقين؟ لقد خسر هذا المسكين نفسه، خسر وجوده، خسر الحياة وما بعدها، خسر الوجود وكل شيء لأنه خسر الإيمان، فما أصدق ما جاءت به النصوص الدينية القديمة من أن الله يقول لعبده: ''عبدي اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء'' ورحم الله من قال:

"إلهي ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، وخسر من بغى عنك حولاً".

ثم إن الإيمان والاعتقاد الحق هما الوسيلة الناجحة لتخليص النفس الإنسانية مما يعتريها من علل القلق والحيرة والتعاسة، ومن أمراض الاكتئاب والاضطراب النفسي التي قد تودي بحياة الإنسان هماً وكمداً ويأساً وقنوطاً، وخير ما يثبت ذلك ويؤكده ما نجده من شدة الطلب في عصرنا الحديث على عيادات ومصحات الطب النفسي الني يعاني روادها من أزمات نفسية طاحنة نتيجة البعد عن الإيمان والتخلي عن الدين.[8]

الصنف الثالث: ثمرة خلقية سلوكية:

هنالك آيات قرآنية عديدة تؤكد على الصلة القوية بين العقيدة والأخلاق كقوله تعالى في وصف المكذبين يوم الدين: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[المدثر:٤٣-٤٥] وقوله أيضا: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾،[الماعون:١-٢] ومن ذلك أقوال النبي ﷺ في أحاديث كثيرة تنفي كمال الإيمان على من اختلت أخلاقه ولم يحسن إلى الناس، ومن ذلك قوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه".[9] وقوله "والله لا يؤمن (ثلاثاً)، قالوا من؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"... وقوله كذلك: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"،[10] وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" و "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان".[11]

وأما عن الارتباط بين العبادة والأخلاق، فيكفي أن نعلم أن الإسلام جعل الخلق القويم والسلوك المستقيم ثمرة للعبادة الصحيحة المؤسسة على الإيمان العميق، قال تعالى: ﴿إنَّ الصلاةَ تَنْهى عن الفَحشاءَ والمنْكَر﴾[العنكبوت:٤٥] وقال أيضاً: ﴿يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمنّ والأَذَى﴾...[البقرة:٢٦٤] ومن ثم كان الإيمان بدون أخلاق ناقصاً "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"[12]

وهذا الاهتمام من الإسلام بتأسيس القيم الخلقية على أصول الإيمان يعكس عناية الرسالة الخاتمة بإقامة مجتمعات مدنية صالحة، إذ القيم الخلقية هي القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الأمم وتستند عليها الحضارات.

وغني عن البيان أن الحياة الاجتماعية لا قيام لها إلا من خلال رباط اجتماعي وعقد تعاوني بين أعضاء جماعاتها، وهو ما لا يتم إلا بقانون ينظم العلاقات ويحدد الحقوق والواجبات، ثم إن هذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته، وليس هناك قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في

كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.[13]

إن قوانين المجتمعات وسلطان الحكومات لا تكفي لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق وتؤدى فيها الواجبات على الوجه الأكمل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط، أو خوفاً من السجن، أو هرباً من العقوبة المالية لا يستمر في ذلك طويلاً متى أمن واطمأن.

إن الإيمان والعقيدة الدينية تكسب القانون سلطاناً أدبياً به يأمر وينهى، كما تلهب المشاعر بالحياء من الله والمحبة له والخشية منه، ولا ريب فيأن هذا الإيمان هو الأقوى تأثيراً في النفس الإنسانية والأشد مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواصف، والأسرع نفاداً في قلوب الخاصة والعامة.

الخاتمة

تبين لنا مما سبق أن إشعال جذوة الإيمان في القلوب كفيل بمساعدة الإنسانية المعذبة على حل مشاكلها وتزويدها بالسكينة والطمأنينة نتيجة وصلها بحبل الله المتين.

* * *

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. كتب السنة المطهرة.

٣. الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشرة سوزلر بالقاهرة، ١٩٩٢

٤. د. محمد عبدالله دراز: الدين، نشرة دار الفكر العربي بالقاهرة.

٥. د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، نشر وهبة بالقاهرة.

٦. د. محمد عبدالله الشرقاوي: الإيمان، نشر دار الجيل بيروت.

٧. منهج القرضاوي في دراسة العقيدة، الدوحة قطر.

٨. مجلة النور، العدد الأول، تركيا.

* * *

الهوامش

[1] أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان، ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

[2] (ثورة الإيمان، مجلة النور، العدد ١، يناير ٢٠١٠)

[3] بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، ص٤٢٧ إلى ٤٢٨، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار نشر سوزلر، القاهرة، ١٩٩٢

[4] استمر هذا الخلاف العقيم بين علماء السلف والخلف زمناً طويلاً واستنفذ طاقات علمية شغلت العلماء عن البحث في موضوعات ملحة ومزّق هذا الصراع وحدة الأمة ومزّقها... وهو صراع في مسألة من مسائل فروع العقيدة وليس أصولها. (انظر كتابنا: الإيمان، أصوله وفروعه، نشره دار الجيل، بيروت).

[5] الشيخ سعيد النورسي: كليات رسائل النور؛ اللمعات من صـ ٥٣٩ إلى ٥٤٦، (مواضع متفرقة بشيء من التصرف)

[6] المرجع السابق، من صـ ٢١ إلى ٢٧

[7] صحيح مسلم كتاب الزهد، باب ٦٤

[8] الشيخ يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، (مواضع متفرقة بتصرف)، نشر وهبة بالقاهرة. وقارن بحثنا عن: منهج الشيخ القرضاوي في دراسة العقيدة، ضمن الكتاب التذكاري المهدى إليه، نشرة الدوحة، دولة قطر، ٢٠٠٦.

[9] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧١.

[10] مسند أحمد، ١٣٥/٣

[11] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

[12] رواه الترمذي فس سننه: كتاب السنة، باب ١٤.

[13] انظر د. محمد عبدالله دراز: الدين، ص٩٨، دار الفكر العربي، القاهرة.